جهود محمود السّعران في تبسيط الدَّرس اللّساني للقارئ العربيّ من خلال كتاب "علم اللُّغة: مقدِّمة للقارئ العربي"

The efforts of Mahmoud Al-Saaran to simplify the linguistic lesson for the Arab reader through the book "The Linguistics: an Introduction to the Arab Reader"

د/ محمَّد يزيد سالم– yazidsalem915@yahoo.com

جامعة باتنة1– الحاج لخضر/ الجزائر

د/ محمَّد الأمين مصدَّق- manogoodman@gmail.com

جامعة محمَّد خيضر– بسكرة/ الجزائر

تاريخ الاستلام: 2020/11/27 تاريخ القبول: 2020/12/05 تاريخ النشر: 2021/01/01

ملخص:

قدّم الباحثون اللّغويّون العرب على اختلاف مشاربهم وتوجّهاتهم خدماتٍ جليلة للدّرس اللّساني العربي من خلال مؤلّفاتهم وبحوثهم، وفي مقدّمتها المؤلّفات التمهيديّة التي تغيّت تبسيط علم اللّغة وتقديمه في شكل ميسّر يتيح للقارئ التعاطي المنهجيّ معه واستيعابه، وتحقيق الفائدة المرجوة من دِراسة هذا العلم الذي عُدّ آنذاك وافدا جديدا. ويعدّ كتاب "علم اللّغة، مقدّمة للقارئ العربي" لمحمود السعران واحدا من المؤلّفات الرَّائدة في هذا المجال؛ حيث يتميّز بجملة من الخصائص المنهجيّة والموضوعيّة تجلّت في اختيار مادة الكتاب، وتبويبه، وترتيب فصوله، ومباحثه، وإكثاره من الأمثلة، وتنويع موارد بحثه، وتزويده بمعجم مفيد ... كل هذهِ الميزات وغيرها جعلت منه كتابا رائدًا، ومهمّا للقارئ المبتدئ، حتى يلج إلى علم اللّغة من أوسع الأبواب.

الكلمات المفتاحيّة: اللّغة؛ اللّسانيّات التمهيديّة؛ القارئ العربي؛ محمود السّعران؛ تبسيط.

Abstract:

the Arabic linguistic researchers -alhtough their different backgrounds and orientations- had provided a great services to the Arabic linguistic lesson through their books and researches, in the foremost of which are the introductory linguistic literatures that aimed the simplification of language science and presented it in an easy form that enable the reader to systematically deal with it and understand it, and to achieve the desired benefit from studying this science wich was considered new in that time. One of the pioneering books in this field is "Language Science, Introduction to the Arabic Reader" by the author Mahmoud Al-Saaran, It is characterized by a set of methodological and objective characteristics that have

been manifested in the selection of his book contents, the classification of its chapters, putting a lot of examples, diversification of his research resources, and providing it with a Useful dictionary... these and other features have made him a pioneering book, and important for the novice reader, so that he can access to the linguistics from the widest doors.

Keywords : The language; The Introductory Linguistics; The Arabic Reader; Mahmoud Al-Saaran; Simplification.

تمهيد:

يؤرِّخ أغلبُ الباحثين لنشأةِ الدّرس اللّسانيّ الحديث في الوطن العربي بِكتابات نهضوية لم تُستثمر معطياتها ونتائجها بشكل منهجي وفاعل، مثل جهود رفاعة الطهطاوي وجورجي زيدان، وأحمد أمين، وأمين الخولي...ثمَّ ظهرت اللّسانيات التمهيديّة التي تصدّى للكتابة فيها جمع من الأساتذة والباحثين الذين درس أغلبهم في جامعات أوروبا وأمريكا، ونهلوا مبادئَ الدّرس اللِّساني من مصادره وموارده الأصليّة، وتتَلمذوا بين أيدي جملة من خيرة الأساتذة هناك، فقدَّموا عددًا من المؤلَّفات التي تتباين قيمتها العلميّة، وتختلف مساقاتها المنهجيّة. ومن بين أولئك الباحثين "محمود السّعران" في كتابه "علم اللّغة مقدّمة للقارئ العربي" الذي يعدّ من أبرز الكتابات اللّسانيّة التمهيديّة العربيّة؛ إذ هو موجَّهٌ حصرًا للقارئ العربيّ المبتدئ حتّى ييسّر له المعرفة اللّسانيّة ويقرّبها منه؛ ولذلك فهو قائم على الشرح والإيضاح والتبيان.

وانطلاقًا ممَّا سبقَ نحاول في هذه المداخلة بسطَ أهمّ المباحث التي عرض لها المؤلِّف في هذا المؤلَّف، والإشارة إلى أهمّ المواضيع التي تناولها بالشرح والتحليل، وتبيان مدى إسهامه في تبسيط الدّرس اللّساني وتوضيحه للقارئ العربيّ، وتجلية الغموض عنه، وتقريب مأخذه، منطلقين في ذلك من التساؤلات الآتية: هل نجح محمود السّعران– من خلال هذا الكتاب- في تبسيط الدّرس اللساني؟ وهل وُفِّق في عرض مادته وترتيبها؟ وما أهمّ الملاحظات المنهجيّة التي يمكن أن نسجّلها حول الكتاب؟ وهل ما تزال الأطروحات التي تضمّنها صالحة، وقابلة للدِّراسة والتَدريس؟

1-فتح الباب في أهميّة الكتاب:

وضع الدكتور السّعران عنوانا رئيسًا لكتابه هو "علم اللّغة" وأضاف إليه "مقدّمة للقارئ العربيّ"، والكتاب بهذا العنوان يعدّ مدخلا ومنفذًا إلى اللّسانيات؛ إذ قصَد المؤلف منه تقديم هذا العلم إلى القارئ العربيّ حصرا؛ لذلك ضمّنه مقدّمة طويلة جدّا عرض من خلالها شيئا من مبادئ هذا العلم الجديد آنذاك؛ فليس للقارئ العربيّ به كبيرُ صلة، ولا عميق معرفة، ولا واسع دراية[1]. وعمل السّعران في هذا الكتاب يشبه عمل الدكتور تمّام حسّان في كتابه المعروف "مناهج البحث في اللّغة" مع «الاختلاف في التناول، وفي طرح القضايا وفي الهدف من العمل»[2].

كما صرّح محمود السّعران بانتهاجه سبيل التبسيط والتيسير والتسهيل؛ إذ نُلفيه يقول في مقدّمة كتابه:« ولقد حاولت تبسيط حقائق هذا العلم ما وسعني التبسيط، مع حرصي على الدقّة والسّلامة، حتّى يستقل القارئ المبتدى بتحصيل ما فيه ومدارسته، وينتقل منه إلى مطالعة أصول هذا العلم منقولة إلى العربيّة، أو مكتوبة بلغاتها»[3].

وقد بسط المؤلّف في مؤلَّفِه قضايا لغوّية متنوعة ومختلفة، ومزج بين ما هو وصفي وما هو تاريخي ومقارن، ويتّضح بجلاء تأثّره بفرديناند دي سوسير(Ferdinand de Saussure) أبي اللّسانيات الحديثة الذي بلورها، وبيّن طريقها، ومحاور دراستها وأهدافها، وأجلى أُسسها.

ويعدّ السّعران من أوائل العلماء الذين عرضوا وضعيّة علم اللّغة الحديث في الأقطار العربيّة مقارنة بما هو عليه في الغرب عرضا فيه نوعٌ من التفصيل والإحاطة، وذكر في هذا الباب جملة من العوامل التي اعتبرها عوائق وصعوبات تقف صخرة كأداء أمام تطوّر اللّسانيات في الوطن العربيّ. والوضعيّة التي تحدّث عنها السّعران تشمل الحقبة الممتدة من الأربعينات إلى ستينات القرن الماضي، وتختلف وضعيّة البحث اللّغوي في تلك الفترة -بالضرورة- عن واقع اللّسانيات اليوم[4].

والمؤلّف من أوائل علماء لغة العرب في العصر الحديث الذين استعملوا مصطلح البنية، ويتجلّى هذا في دراسته للحدث الكلامي وتحليله إلى عناصره المكوّنة له، وسيظلّ من السابقين الذين أدخلوا مصطلح البنية إلى اللّغة العربيّة[5].

والسّعران من جملة الدّارسين الذين يذهبون إلى أن اللّسانيات العربيّة كانت محاولة في بداية الأمر لنقل النظرية اللّسانية الغربية وتطبيق مقرّراتها على اللّغة العربية، وكان الهدف من ذلك هو أن تبني لنفسها هيكلا مستقلا تصف من خلاله اللّغة العربيّة اعتمادا على الأصول النظريّة، مع مراعاة ما يتطلّبه الواقع اللّغوي اليوم من نظر خاص، فاتّجهت في بداءة الأمر إلى ما يمكن تسميته "لسانيات توفيقيّة" تتبنّى أنموذجا وصفيّا يمزج المقولات النظريّة الغربيّة الحديثة بمقولات نظريّة النحو العربي[6].

2-المواضيع التي تناولها المُؤَلِّف في المُؤَلَّف:

قسّم المؤلّف كتابه إلى خمسة أبواب، وخصّ الباب الأوّل للتعريف بعلم اللّغة، وقد تمّ التأكيد على كونه علمًا يدرس اللّغة في ذاتها ومن أجل ذاتها كما يذهب فرديناند دي سوسير (Ferdinand de Saussure)، وطبيعة الدراسة العلميّة للّغة، ثم لموضوع هذا العلم، ثمّ فصّل الحديث عن النظريات التي تتحدّث عن نشأة اللّغة قديمها وحديثها، وهذا ما يدخل في إطار فقه اللّغة، كما تناول طبيعة اللّغة عند اللّسانيّين الغربيّين، وتحدّث عن السيميولوجيا، وعن علاقة علم اللّغة بالعلوم الأخرى، كما تطرّق لطبيعة الدراسة اللّسانية الحديثة. وتناول في الباب الثاني المستوى الصوتي المندرج في بوتقة فرعٍ لسانيٍّ مهمٍّ هو "علم الأصوات اللغويّة"؛ وعرض في هذا الباب للدراسات الصوتيّة السابقة عند اليونان والرومان والهنود والعرب، حتى علم الأصوات الحديث والفونولوجيا. أمّا الباب الثالث فتناول فيه العلاقات الصرفيّة والتركيبيّة في الجانب النّحوي للظاهرة اللّسانيّة، فبسط الحديث عن النّحو والوصفي والمقارن. وخصّص الباب الرابع للحديث عن علم الدلالة (دراسة المعنى)، وتطرّق إلى قصور المعنى القاموسي، وتغيّر المعنى، وتحدّث عن مناهج دراسة المعنى ومدارسها (ميشال بريال، دي سوسير، فيرث). أمّا الباب الخامس والأخير فكان عن تاريخ الدراسات اللغويّة بدءا من العصور القديمة وانتهاء بالقرن العشرين، كما زوّد الكتاب بمعجم خاص بالمصطلحات اللّغوية بالإنجليزيّة ومقابلها باللّغة العربيّة.

2-1- علم اللّغة ماهيته وموضوعه:

تبنّى الدُّكتور محمود السّعران تعريف دي سوسير لعلم اللّغة مؤكّدا أنَّ موضوعها الوحيد والصحيح هو «اللّغة معتبرة في ذاتها ومن أجل ذاتها»، ومدار اللّغة المقصودة هنا ليست لغة محدّدة، كالألمانيّة أو الفرنسية أو الإنجليزيّة أو العربيّة أو العبريّة؛ بل اللّغة بعدّها تمظهرا متنوّعا في لهجات كثيرة ومتعدّدة، تتنوّع تنوّع صُور الكلام الإنساني؛ فاللّغات وإن كانت تختلف عن بعضها بعض، وتفترق وتتشاكس في كثير من خصائصها؛ إلّا أنّ هناك مساقات جوهريّة تجمعها، وخصائص جوهريّة تعصب بينها؛ حيث إنّها جميعا نظام اجتماعي معيّن تتكلّمه جماعة معيّنة بعد أن تتلقّاه وتتحقّق به وظائف خاصّة، ويتأثّر هذا النظام بأطوار معيّنة وبسائر الظروف الاجتماعيّة والاقتصاديّة والثقافيّة...الخ، وفي الخلاصة فموضوع علم اللّغة هو اللّغة من حيث هي وظيفة إنسانيّة[7].

ويشرح المؤلّف ما قصده فرديناند من قوله إنّ موضوع علم اللّغة هو اللّغة في حدّ ذاتها؛ أي «كما هي، يدرسها كما تظهر، فليس للباحث أن يغيّر من طبيعتها...فليس له أن يقتصر في بحثه على جوانب من اللّغة... وينحي جوانب أخرى...»[8]، أمّا معنى قوله من أجل ذاتها، فمداره أن «يدرسها لغرض الدّراسة نفسها...يدرسها دراسة موضوعيّة...يصفها ويحلّلها بطريقة موضوعيّة»[9].

وفي ما يخصّ موضوع "نشأة اللّغة" ينوّه الباحث إلى أنّ هناك نظريّتين شائِعتين في العصور الوسطى تدوران في هذا الإطار، وعليهما المرتكزُ والمستندُ في تفسير نشأة اللّغة الإنسانيّة، أوّلهما نظرية الوحي الإلهي، وثانيهما نظرية الوضع والاصطلاح، في حين يذهب العلم الحديث إلى أنّ اللّغة ظاهرة اجتماعيّة كسائر الظواهر الاجتماعيّة الأخرى[10]. وعلم اللّغة كما يشير الباحث لا عن يعدّ هذا الموضوع من أسِس دراسته[11].وقد بات من المعلوم أنّ موضوع "نشأة اللغة" يدخل في إطار حقل معرفيٍّ آخر هو "فقه اللغة" كما أشار كثير من الباحثين. ويؤكّد السّعران أنّ القطع بقول والوصول إلى رأيٍّ علميٍّ حول نشأة اللغة لا سبيل إليه «وكلّ ما يقال فيه من قبيل الفروض التي لا تستند إلى أسس سليمة، فنشأة اللغة متّصلة بنشأة الإنسان، أو بنشأة المجتمع الإنساني، وبالمخّ الإنسانيّ ونموّه، وبأطوارِ الحياة الاجتماعية التي مرَّ بها الإنسان...»[12].

ويؤكّد أنّ اللّغة التي يدرسها علم اللّغة هي تلك التي تربط مضمونات الفِكر الإنساني بأصوات منطوقة؛ إذ هي عمليّة استقبال وإصدار لأصوات تحدثها عملية الكلام. فالأصل في اللغة أن تكون "منطوقة"، أما لغة الكتابة فهي لغة تمثيل الكلام بطريقة منظورة[13].

وفي ما يخصّ طبيعة اللّغة فقد اعتمد الباحث على أطروحات العالم الأمريكي إدوارد سابير (Edward Sapir) (1884-1939م)؛ حيث قارن اللّغة بالسير (المشي) بعدِّه وظيفة إنسانيّة موروثة بيولوجيّة، في حين إنّ اللّغة وظيفة إنسانيّة غير موروثة؛ بل هي ثقافيَّة مكتسبة، والطفل لا يولد قادرا على المشي؛ لأنّ غيره سيعلّمه؛ بل هو مكوّن عضويا لهذا الفعل، أمّا اللّغة فهو يتعلّمها من أفراد مجتمعه؛ حيث يحاكيهم ويقلّدهم[14]. كما ينقل حجج "إدوارد سابير" في دحضه مسألة عدِّ الصرخات الانفعالية شاهدا على كون الكلام غريزيا في مسائل ثلاث هي[15]:

1-الصرخات الانفعاليّة ليست شاهدا بأنّ الكلام غريزي.

2-الكلمات المقلّدة للأصوات الطبيعيّة لا تثبت أنّ اللّغة نشاط غريزي.

3-استعمال المصطلح "أعضاء الكلام" نشاط غريزي بيولوجي.

وينتقل للحديث عن "علم العلامات" الذي تندرج اللّغة في بوتقته؛ لأنّها مجموعة من العلامات أو الرموز؛ فاللّغة بهذا الاعتبار «تشترك مع طائفة أخرى من النظم يصدق عليها ما يصدق على اللّغة من أنّها تتكوّن من علامات اصطلاحيّة يستعان بها في توصيل دلالات اصطلاحيّة»[16].

ويذهب المؤلّف إلى أنّه من الممكن أن يقابل كلّ حاسة من الحواس نظام من العلامات الاصطلاحية ذات الدلالة، وأشهرها تلك التي تخاطب العين، وتلك التي تخاطب السمع، وليست هذه خاصّة بالمجتمعات البدائيّة فقط، بل تستخدمها أرقى المجتمعات؛ ولأنّ هذه الأنظمة شريكة للّغة فعي تستحق أن تُدرس معها، ويشير المؤلّف إلى أنّ دي سوسير هو من اقترح السيميولوجيا (Sémiologie)، وهذا العلم لم ينضج بعدُ، وهو يستفيد من علم النفس الاجتماعي، وعلم الاجتماع، وعلم الأجناس البشرية[17]. ويعرض المؤلّف لأهمّ ما قاله دي سوسير حول هذا العلم، ونلخّصه في ما يأتي[18]:

- هذا العلم لم يوجد بعد، وسيكون بعد وجوده جزءًا من علم النّفس الاجتماعي.

- علم اللّغة جزء من هذا العلم الأعمّ، والنتائج التي يتوصّل إليها مرتبطة به.
- واجب علم اللّغة تحديد ما يجعل اللّغة نظاما خاصا في مجموعة الظواهر السيمولوجية.
- المشكلة اللّغويّة قبل كلّ شيء مشكلة سيميولوجية، وكلّ تقدّم محرز في علم اللّغة يستعير أهميّته من هذه الحقيقة.
- مدار كشف طبيعة اللّغة متعلّق بدراستها من منطلق مشتركاتها مع سائر الأنظمة المنتمية للنوع نفسه.

ويبيّن الباحث أنّ علم اللّغة يستعين بعلوم أخرى كثيرة في مقدّمتها علم الاجتماع؛ بالنظر إلى أنّ اللغة ظاهرة اجتماعيّة أساسا، فدراستها من ناحية جزء من علم الاجتماع العام، وهي مرتبطة أيضا بالأنثربولوجيا (علم الأعراق البشرية) ، وعلم الوراثة، وبعلم الحياة العام. وعلم الأصوات الذي هو أوّل مستويات التحليل اللّساني مُرتبط بالفيزياء، والفيسيولوجيا (علم وظائف الأعضاء)، وعلم التشريح، وهذان الأخيران يفسّران آلية الأعضاء المشتركة في تكوين الأصوات، كما يستفيد علم اللغة من الباثولوجيا (علم الأمراض)، ويرتبط بعلم التاريخ في إطار بحثه عن تطوّر اللّغة وصلتها بالمجتمعات، ولعلم اللّغة علاقة بعلم النّفس؛ إذ يستفيد من الحقائق التي يتوصّل إليها هذا العلم[19].

ويرى صاحب الكتاب أنّ إقامة الفلسفة اللّغوية على أساس منطقي كما ذهب الرواقيون (Stoicism) قد ولّى زمنه ودَرَسَ رسمه ولم يعد له من دليل وبرهان يسنده؛ فالمنطق إمّا أن يعجز عن تفسير كثير من الظواهر اللغويّة، أو يفسّرها تفسيرا فيه تعسّف وعنت لا يوفيها حقّها، ومن صور فساد ذلك« أنّ اللّغة العربيّة تعامل كلمات في المفرد معاملة المذكّر بينما تعامل جمع هذه الكلمات نفسها معاملة المؤنث: وهذا مثل كتاب، وحمام، وقلم، فكل من هذه مذكّر بينما جمع كلٍّ منها، وهو كتب وحمامات وأقلام يعامل معاملة المؤنّث، وكلمة رجل نفسها تجمع على رجال ومن صور جمعها رجالات، والصورة اللّغوية لكلمة رجالات هي صورة جمع المؤنّث»[20].

وإذا أردنا البحث عن فلسفة لغويّة وازنة فعلينا أن نلتزم بالمبادئ والأصول والأسس التي تقوم عليها اللّغة دون فرض ما هو خارج عنها عليها، وعلى الباحث اللّغوي أن يُجَرِّد في مستويات عديدة، وأن تكون الطرق العامة التي يضعها لدراسة اللّغة مرنة ودقيقة. وماهية اللّغة توجب أن يكون ثمّة أكثر من مستوى للدراسة، فتدرس صوتيا، ودلاليّا...وللمسائل العامة كعلاقة اللّغة بالفكر اعتبارات خاصة يجب أن تُراعى، وينبغي التفريق أثناء الدراسة بين ما هو وصفي وما هو تاريخي[21]. ويشير السّعران إلى أنّ الفكرة الكلاسيكيّة حول اعتبار اللّغة مستودعا للفكر، ووظيفتها وفق هذا الاتّجاه محصورة في تحقيق التفاهم والتواصل لا تتيح تحليل كلّ أشكال السلوك الكلامي كالمونولوج، والكلام بغرض التلذّذ والمتعة، وهو يرى أن الأدقّ أن يُنظر إليها كونها وظيفة اجتماعيّة؛ أي طريقة من العمل[22].

ويقرّ السعران أنّ عالم اللّغة يجد صعوبة لا يجدها غيره؛ لأنّ مدار دراسته هو الأداة نفسها؛ أي اللّغة. وهناك دعاوى أشارت على الباحثين إعادة النظر في المصطلحات التي يستخدمونها، فمصطلحات علم اللّغة ليست «مصطلحات عالمية، فلا بدّ من التنبّه في كل حال على المقصود بالسياق الذي يقع فيه، وعند الكاتب الذي يستعمله...فعلم اللّغة في البلاد العربيّة يجب أن يؤدّى بالعربيّة عن العربيّة»[23].

2-2-علم الأصوات:

افتتح الكاتب هذا الفصل بتأصيل تاريخي للدّرس الصّوتي بعدّه مساقا هامّا انتبه إليه كثير من المفكّرين في الحضارات التي عُرفت بالعلم والحذق والفهم، وهم الهنود والعرب الذين أدركوا الأسس الفيزيولوجيّة في تكوين الأصوات المختلفة، أما الرومان واليونان فاقتصرت ملاحظاتهم في هذا الجانب على الآثار السمعية التي تتركها الأصوات في الأذن[24]. ولم يفطن اليونان والرومان إلى تقسيم الأصوات إلى "مجهورة" و"مهموسة" كما فطن العرب والهنود، في حين اهتدى الجميع إلى تصنيف الأصوات إلى "صامتة" و"صائتة"، وصنّف الجميع أصوات لغاتهم حسب "المخارج" أو "موضع النطق" على خلاف في التفصيلات والأسس التي قام عليها كلّ تصنيف[25].

وينوّه السّعران إلى أنّ جهود الهنود الصوتية والنحويّة ذات أثر كبير وفاعل في الدّرس اللّساني الحديث. أمّا العرب فجهودهم الصوتيّة متنوّعة منذ نقط أبي الأسود إلى تصنيف سيبويه المتّصف بالدقة والشمول. ويشكّك الباحث في مسألة أنّ كتاب العين للخليل، أما جهود علماء القراءات فمعروفة مشهورة. ولا يستبعد أن يكون العرب قد تأثّروا بالدّرس الصّوتي الهندي على عوز الدليل، ويؤكّد على العلاقة الوطيدة بين علم النّحو وفنّ الصرف مع الدّرس الصوتي[26]. أمّا علم الأصوات الحديث فمُنْبَثَقه في القرن السابع عشر استفادةً من علم الطبيعة، وعلم وظائف الأعضاء، وعلم الطبيعة، وغدا علما تطبّق عليه مناهج الدراسة العلميّة وبزغت في سمائه أسماء كثيرة قدّمت الإضافة وأسهمت في رقيّه وتطوّره[27].

إنّ موضوع علم الأصوات هو "الصوت الإنساني الحيّ" الذي يصدر عن "جهاز النطق الإنساني"، ومن الناحية البيولوجيّة فليس للإنسان جهاز نطقٍ؛ لأنّ الأعضاء التي تقوم بهذه المهمّة لها وظائف ضروريّة أخرى مثل التنفس والأكل، ودراسة الصوت تقوم على التجريد من خلال وصفه وتحليله إلى "عناصر الكلام"، ومجال الدّرس الصّوتي ثلاثة مهايع[28]:

- الدراسة الصوتيّة الفيسيولوجية: حركات المتكلّم التي تحدث الصوت. وحاز أكبر قدر من العناية.
- الدراسة الصوتية الفيزيقية: انتقال الصوت في الهواء. وبُذلت فيها جهود معتبرة.
- دور طبلة أذن السامع في استقبال الصوت. ولا يزال ينتظر الاهتمام والعناية.

إنّ علم الاصوات إذن مهمّ بالنسبة لسائر فروع علم اللّغة؛ بل الحجر الأساس بالنسبة لأيّ دراسة لغوية أخرى. ويستفيد من علوم كثيرة كعلم التشريح، والفيزياء.

وتقوم الدّراسة الصّوتية الآليّة على ملاحظة أعضاء النطق وهي تعمل عن طريق المجاهر أو عن طريق أشعّة إكس، ويفصّل المؤلّف الحديث عن الآلات التي تستخدم في

بحر هذا العلم، وكيفية عملها مثل "مجهر الحنجرة"، وآلة "تسوندجربيت"، وآلة "شوندر وهوير"...وأهمّ ما يعتمد عليه "علم الأصوات" ما يعرف بالبلاتوجرافيا؛ أي طريقة "الأحناك الصناعية"، وهي طريقة لا يتأتّى استخدامها عند نطق جميع الأصوات، ومن الطرق الهامّة أيضا الكيموجراف، ومن الأجهزة الحديثة "الأوسويلوجراف"، ومن البديهي أن يُستعان في هذه الدراسة بتسجيل الأصوات، وحفظها في أسطوانات، وتحوي المعامل على نماذج وخرائط ورسومات[29].

وفي ما يخصّ الكتابة الصوتية فأساسها رموز صالحة لكلّ الأصوات الممكنة بتخصيص حرف واحد لا غير لكلّ فونيم. وينأى السّعران بنفسه عن تعريف "الفونيم" لعلّة اختلاف الباحثين حوله، مع الإحالة إلى أنّ الكتابة تماثل بين بعض الأصوات المختلفة نطقًا، ويقدّم أمثلة من اللّغتين العربيّة والإنجليزيّة. ولم تستخدم الأبجدية العاديّة في الدّراسة الصوتيّة لافتقارها إلى الوفاء لكلّ الأصوات، مع أنّها تتمايز فبعضها أوفى من بعضٍ. وقد بُذلت جهود كبيرة لوضع أبجدية صوتيّة وازنة، مثل محاولة "بيل" في نظام "الكلام المنظور"، وطريقة "يسبرسن" المسماة "الخط الألفبائي"، ولم يكتب لكليهما الاستمرار. وأفضل الألفباءات الصوتية تلك التي تقوم على رموزٍ تقليديّة مع إدخال تعديلات طفيفة (خط أُفقي صغير، نقطتان...)، مثل ألفباء "لوندل" و "لبسيوس" و"بريمر"... وأشهرها "ألفباء الجمعية الصوتية الدوليّة"، وليست مقصورة على اللّغات الأوروبيّة فقط، بل رموزها مرنة وصالحة للتعديل حتّى تتماشى مع كلّ اللّغات الموجودة في العالم[30].

أمّا مسألة أهميّة هذا العلم فلا شكّ فيها، ولا اعتبار لابتعاد بعض الباحثين العرب المحدثين عنه، وعدّهم إياه ترفًا علميّا، ومردّ أهميّة هذا العلم إلى جملة أمور[31]:

- لا تكون الدّراسة اللّغويّة علميّة مالم تتطرّق إلى المباحث الصوتيّة.
- الدراسة الصوتيّة جزء أصيل من دراسة المعنى.
- يقترن علم الأصوات أيضا بالجانب المقارن والتاريخي للّغة.
- يسهم في ابتداع أبجديات جديدة، وإصلاح الأبجديات القديمة.
- المعاجم في حاجة مسيسة إلى معطيات الدراسة الصوتيّة.

- لـه دور فاعـل في تعلـيم اللّغـات وتعلّمهـا، سـواء اللّغـات الأمّ أو اللّغـات الأجنيـة، وتصحيح الأخطاء، وتقديم توصيات تفيد في معالجة الأمراض التي تصيب الجهاز الصوتي.

وينبغي لدارس الأصوات معرفة أعضاء النطق تكوينا ووظيفة، وهذه الأصوات تُنتجها حركات لأجزاء الفم، والأنف، والحلق والرئتين. وأعضاء النطق الرئيسية هي: الحنك (أقصى، وسط، مقدّم)، الحلق، الحنجرة، الغلصمة، الوتران، اللّسان، الشفتان، الأسنان، مع الاستفاضة في توضيح أجزاء كلٍّ عضو، ووضعه، وآليّة عمله، وصفات الصوت الناتجة عن عمله، وتقديم أمثلة عن ذلك[32]. ويتناول الباحث بالتفصيل الصّوت اللّغوي الذي يحدثه عمود هوائي يجري في فراغ أعضاء النطق، وله نقطة بداية ونقطة نهاية، ومجرى خاص[33].

ولا تُحدِث أيّ لُغة إلّا جزءا محدودا من الأصوات، والعالم يصنّفها حسب خواصها السمعيّة، وصفاتها الموسيقية، ويكاد يستحيل أن تتماثل العناصر الصغيرة التي تشكّل السِلسلة الكلاميّة من خلال ما تسجّله الأجهزة، ولكنّ تقسيم الأصوات إلى سلاسل أمر ملائم للدّراسة، فالكلام في النهاية هو نتيجة أحداث معيّنة يقوم بها جهاز النطق. وتعريف الصوت الكلامي حسب دانيال جونز هو: "أصغر قطعة قابلة للتبادل"، وللتوضيح يمثّل بكلمة (az) التي يتكوّن من صوتين كلاميين؛ فالقطعة التي نمثّلها في الكتابة (a) هي أصغر قطعة ابتدائية يمكن إزالتها، وإحلال قطعة أخرى محلها، مثل (i)، فتصير (iz) [34].

أما تصنيف الأصوات فأهمّها الصَامتة والصَائتة، والصائت صوت مجهور يجري في نطقه الهواء دون أن يعترضه شيء، وما لا يصدق عليه هذا التعريف يعدّ صامتا؛ أي إنّ الصامت فيه مجهور ومهموس يحدث في نطقه أن يعترض مجرى الهواء اعتراضا كاملا أو جزئيًّا. وتنقسم الصوامت حسب ممرّ الهواء إلى انفجاريّة، واحتكاكية، وغنّاء، ومنحرفة، ومكرّرة، ومستلبة، ومتمادة، وأشباه صوائت. أما تصنيفها من حيث موضع النطق فهي: الشفتان، الشفة السفلى والأسنان العليا، الأسنان، ما بين الأسنان، اللثة، اللثة ومقدم الحنك العليا، مقدم الحنك الأعلى ووسطه، أقصى الحنك الأعلى، اللهاة، الحلق، الحنجرة. أما الصوائت فأهمّ عضو في حدوثها هو اللّسان والشفتان، وتصنّف إلى خلفية

وأمامية ووسطى، والصوائت الأساسيّة هي: الفتحة، والكسرة، والضمّة، والألف الممدودة الليّنة، أو الطويلة، والياء الممدودة، أو الكسرة الطويلة، والواو الممدودة اللينة، أو الضمّة الطويلة. ويخصص المؤلّف ثلاث صفحات للحديث عن الصائت المركّب الذي هو صائت يتضمّن انزلاقا مقصودا، وهي في الإنجليزية مثلا تسعة[35]. ويؤكّد الباحث أنّ التجريد الذي قام به ضروري؛ لكنّنا في الواقع لا ننطق بالصوت مفردا، بل في كلمات وتراكيب؛ حيث يكتسب الصوت مجموعة من الخصائص؛ إذ تحكم بين الأصوات قواعد وأصول معيّنة، ومن بين الخصائص الصوتية التي تظهر في الكلام المتّصل: الجهارة، الارتكاز (قوي، ضعيف، ثانوي)، التنغيم...وغيرها[36].

ويقوم علم الأصوات الوظيفي على مبدأ أنّه لا حصر للأصوات في اللّغات، وما نسمّيه صوتا واحدا قد يتردّد بنفسه أكثر من مرّة في كلمة، وبطريقة نطق مختلفة، مثل الفتحات الثلاث في كلمة "بَطَرَ"؛ إذ تُعدُّ تنوّعات للفونيم نفسه، وهي وإن كانت مختلفة من حيث تكوينها، إلّا أنّها متطابقة في وظيفتها. وأيُّ واحدة منها لو وُضعت مكان واحدة أخرى في أيّ كلمة من الكلمات العربيّة لما تغيّر معناها. ونلحظ في العربيّة تقابلا بين حروف، مثل التاء والدال، وثمّة تقابل بين الفتحة والضمّة، فكلمة "كَرَمْ" اسم، و"كَرُمَ" فعل. إنّ أزواج الأصوات المتقابلة يختلف بين اللّغات نوعا وعددا. وقد يكون مدار التفريق بين كلمتين على التنغيم (الصينية وبعض لغات إفريقيا الوسطى)، أو كميّة الصوت "الإستونيّة".

ويذهب السّعران إلى رفض الفصل الحاد بين "Phonology" و"Phonetics" كما ذهبت إلى ذلك مدرسة براغ، ويتبنّى رأي "برتيل مالبرج" الذي يذهب إلى أنّ دراسة الظواهر الصوتية والفيسيولوجيّة الخاصة بالكلام الإنساني ينبغي أن تسير موازية للدراسة "الفونولوجية"، فمن العبث أن نفاضل بينهما[37].

2-3-النحو:

لكلّ لغة من اللّغات طريقتها في نظم الكلام، والمتكلّم يكتسب عادات كلاميّة ويألفها، ويدأب عليها، وتصدر منه نماذج تأليف الجمل بالكلمات دون شعور، فهو لا يدرك العمليات المعقّدة التي يقوم بها، ولكنّه في تعلّمه للّغات الأجنبيّة يقع في عثرات فيبذل جهدا شعوريا للنطق بها، ويتناقص الجهد كلّما أتقنها، وعليه فنحن لا نجيد أيّ لغة مثلما

نجيد لغتنا الأمّ. والمتكلّم يقوم بعملّتين أساسيّتين تحليليّة وتركيبيّة. ويتميّز النحو الحديث بأنّه صوري شكلي ووظيفي أيضا، فيبتعد بذلك عن الأصول الفلسفية القديمة. وجرى الغرب في دراسة النحو على المورفولوجيا والنظم، والمورفيم هو وحدة المورفولوجيا الأساسية ويختلف بين المدرستين الأوروربيّة والأمريكيّة[38].

ويجتمع التحليل الفونولوجي والنّحوي في كونهما شكليّين، والتحليل الفونولوجي أسبق من التحليل النّحوي، ولكنّ هناك خلافا بيّنا بينهما، فالفونيم والمقطع هما وحدتا التحليل الفونولوجي، بينما المورفيم والكلمة هما العنصران الأساسيان اللّذان يدرسهما النحو. ويمكن القيام بتحليل نحوي للغة ميتة؛ لكن لا يمكن ذلك فونولوجيّا؛ إذ يمكن فصل النحو عن الفونولوجيا، والعكس مستحيل. وغالبية اللّغات فيها قيود تتضمّن أشكال الكلمات وترتيبها. والكلمات دالة من الناحية النحوية، وباعتبارها أفرادا في أقسام الكلمة المختلفة، نتيجة وظائفها النظميّة[39].

وفي ما يخصّ المورفولوجيا فهي تتكوّن من عنصرين: المعنى ويدرس تحت "علم المفردات" أو "الدلالة"، والعلاقة تدرس بعدّها جزءا من النّحو في إطار علم "المورفولوجيا". والمورفيمات ثلاثة أقسام، الأوّل: عنصر صوتي غالبا (صوت واحد، مقطع، عدّة مقاطع)، والثاني: عنصر صوتي معبّر عن "المعنى، الماهية، التصوّر"، والثالث: موضع يحتلّه كلّ عنصر من عناصر المعنى في الجملة.

فالأوّل مثل: "ضرب، يضرب، اضرب، ضربٌ، مضروب، مضروبون، مضرب"، فجميعها متّصلة بالمعنى "الضرب"، لكننا نجد فيها عناصر صوتيّة تحدّد كون الكلمة فعلا أو اسما، ومحددة لنوعها، وعددها، وشخصها.

والثاني مثاله في العربيّة المقابلة بين المفرد وجمع التكسير، (بيت، بيوت- كريم، كرام)، والمقابلة بين المبني للمعلوم والمجهول (سعَى، سُعِي-وعد، وُعِد)، والتنغيم، والارتكاز، والوقف...

والثالث مداره المركز الذي تحتلّه الكلمة الدالة على التصوّر في الجملة[40].

وبعد دراسة الأقسام الشكليّة يهتم اللّغوي بالنظم؛ أي ترتيب الكلمات في الجمل، ويقدّم السّعران مقارنة بين دراسة المورفولوجيا والنظم حديثا ودراستهما قديما عارضا

رأي "كارول" (J.Carroll). وعموما فطريق اللّغوي لتحديد "مورفيمات" اللّغة هو الاهتداء إلى خصائصها التكوينية المختلفة، ويدرس بعد ذلك طرق تأليفها، وتغيّرها، ثم يدرس النظم. وعليه فمعاني البنية اللّغويّة هي معاني تحملها نماذج الاختيار وترتيب الأقسام الشكليّة في مقابل "المعاني القاموسيّة"، ومن نماذج معاني البنية التي يحدّدها تركيب الجملة مثلا: الاستفهام والتقرير والرجاء...الخ[41].

أما الفصائل أو الأقسام النَّحويّة فهي متعدّدة ومتنوّعة ومختلفة باختلاف اللّغات، كما أنّ عنصرا من عناصر الفصيلة قد ينتهي في زمن ما، وعلى الرغم من نسبية الفصائل إلّا أنّ المورفولوجيا تسعى لتصنيفها وتحديد ماهيتها. وقد ظهرت أهمية الفصائل عند شروع الأوروبيين في دراسة نماذج مختلفة من النّحو الهندو-أوروبي. وبسبب صعوبة دراسة كلّ الفصائل العالميّة، فالدراسة مقصورة على نماذج مختارة. ومن أهمّ الفصائل النحويّة "الجنس"، وبرز منذ أقدم اللّغات، وهي لا تسير فيه على نمط واحد، وفي العربيّة يعدُّ "الإسناد" و" الصّفة" أهمّ العلامات التي تحدّد تذكير الاسم من تأنيثه[42].

ويتحدّث المؤلّف عن معاني الأشكال النحوية التي تحدّدها العلاقات المتبادلة بين الأشكال في النظم النحوية القائمة في اللّغة، ويختلف معنى الفصيلة النحوية باختلاف اللّغات، والنظام الداخلي للعلاقات هو أساس الوصف السليم، ثمّ يقدم الباحث تسع وصايا للواصف النحوي استقاها من مقال نشره أستاذه الإنجليزي "فيرث"[43].

وتبرز في ميدان الدِّراسة اللّغوية ثلاثة مناهج أساسيّة (المقارن، الوصفي، التاريخي)، والوصفي هو أساسهما، ويختصّ بفترة محدودة من تاريخ لغة من اللّغات المستعملة في مكان محدود، ولا تقوم الدراسة التاريخيّة إلّا بعد الفراغ من دراسة المراحل اللّغويّة المختلفة دراسة وصفيّة، وهذان المنهجان لا يفسّران كلّ الظواهر اللغويّة بشكل وافٍ، مثل التطوّر اللّغوي، فيُلجأ إلى المنهج المقارن[44]. وقد بسط الباحث الحديث عن المنهج المقارن محلّلا ومفسّرا لجميع جوانبه[45].

2-4- علم الدلالة أو دراسة المعنى:

يري السّعران "علم الدلالة" أو "دراسة المعنى" قمّة الدّراسة اللّغويّة، وعليهم فهو غاية الدراسات الصوتية، والفونولوجية، والنحوية، والقاموسية، ويتميّز هذا العلم بأنّ علماء

ومفكّرين في ميادين مختلفة ساهموا في صياغته، وبغضّ النظر عن إيجابيات هذا الأمر، فله سلبيات أدّت في إساءة فهم المعنى[46]. ويشير المؤلّف إلى قصور المعنى القاموسي الذي لا يستند إلى السّياق وظروف التكلّم، وعلى هذا، ففي ظلّ المعنى الدلالي تصبح عبارات مثل "صباح الخير" حمّالة أوجه كثيرة. ويقرّ بصعوبة دراسة المعنى –وهو السبب الرئيس في حدوث كثير من الخلافات بين الناس في هذه الحياة- مقدّما جملة من الأمثلة العربية والإنجليزيّة، وليست الصعوبة مقتصرة على اللغة الأدبيّة؛ بل حتى على مستوى اللغة العادية اليوميّة[47].

أمّا تحصيل المعنى عند الطفل فيبدأ بالمحسوسات غالبا، وهذا التحصيل يستغرق منه وقتا، يبدأ بسيطا ثم يصير مركّبا. أمّا عمليات توصيل الكلام فتتكّرر في ظروف متشابهة، وينتج عن تكرارها تقارب فهم الجماعة اللّغويّة لهذه الكلمة أو تلك، وللكلمة المنطوقة معانٍ منطقيّة مرجعها غالبا إلى القاموس، وهناك اشتراك متطابق أو متقارب في فهمها بين الجماعة اللّغويّة. ونحن حين ننطق لا نفصل المعنى القاموسي عن المعنى النفسي. ويتأثّر فهم الكلمة بالاختلافات الحاصلة بين الأفراد في التجارب والخبرات الحياتيّة المتنوّعة. ويقع الخلاف أيضا نظرا لنوع الكلام، فكلام رجل العلم ليس ككلام العاميّ[48].

كما تناول المؤلّف في الكتاب "تغيّر المعنى" الذي يبدأ تدريجيّا في أغلب الأحوال، لكنه قد ينتهي في آخر الأمر إلى تغيّر كبير. وأنواع هذا التغيير هي: التغيّر الانحطاطي، مثل: الزقوم، والتغيّر المتسامي، مثل: مارشال، والتغيّر نحو التخصيص، مثل: الفاكهة، والتغيير نحو التعميم، مثل: البأس، والتغيّر نحو المعاني المتصادّة، مثل: الجون[49].

وهناك علاقة بين التطور الدلالي والاستعمال النحوي، فكثير من الكلمات وصلت إلى وظيفتها الحالية عن طريق حدوث تغيّرات دلاليّة، ويقدّم نماذج من اللّغة الفرنسية والإنجليزيّة، كما يشير الباحث لعلاقة التطور الدلالي بالتاريخ الثقافي، فأكثر أصحاب اللّغات يطلقون على المخترعات الحديثة تسميات مستقاة من التراث، كالسيارة والدبابة مثلا في اللّغة العربيّة، والسبب الرئيس لهذا التطوّر هو التغيّرات العارضة في العالم الخارجي[50].

ثمّ يبسط الحديث عن مناهج دراسة المعنى بادءا بميشال بريل (Michel Bréal) الذي يعدّ صاحب عذرة مصطلح (Semantique)، واقتصرت دراسته على الاشتقاق التاريخي، وقد فتح باب البحث الدلالي لمن بعده، كما يشير السعران إلى كتابات غير اللغويين مثل كتاب "معنى المعنى" لأوجدن وريتشاردز، و"منطق الفيزياء الحديثة" لبردجمان، و"فولكلور الرأسماليّة" لثورمان أرنولد، و "العلم وسلامة العقل" لألفرد كورتسبسكي، و"طغوى الألفاظ" لستيوارت تشيز، كما أشار لكتابات هاياكاوا وإرفنج، وجي لي[51].

ثمّ تطرّق إلى الباحث بتفصيل لنظريّات اللّغويين في علم الدلالة، وفي مقدّمتهم دي سوسير الذي يعدّ أبا المدرسة الاجتماعيّة في الدراسات اللغويّة، متأثّرا بإميل دوركايم، ويفرّق المؤلّف بين مصطلحات (لغة، لسان، كلام) وفق منطق دي سوسير، ثمّ يتناول المدرسة السلوكيّة الأمريكيّة لبلومفيلد الذي تأثر بألبرت بول فايس، وأخيرا المدرسة الاجتماعيّة الإنجليزيّة التي تأثّرت بأبحاث الأنثربولوجي البولندي مالينوفسكي، مع شرح شافٍ لكلّ مدرسة، وتوضيحٍ لأبعاد البسط اللساني الدلالي الذي جاءت به[52].

2-5-تاريخ الدّراسات اللّغويّة:

قسّمها المؤلّف إلى عصور قديمة؛ تناول فيها عصر ما قبل النحاة، وانماز بالشغف في البحث عن نشأة اللّغة، وتعدّد اللّغات واختلافها واختراع الكتابة، ثمّ تحدّث عن الهنود الذين قدّموا دراسات منهجية في التحليل الصوتي، ثم اليونان منوّها بجهودهم الصوتيّة، وبحوثهم في بعض أبواب فقه اللّغة (نشأتها، وأصلها)، ووصف النحو اليوناني بأنّه تقعيدي تعليمي، كما تركوا ملاحظات لغويّة قيّمة، وبرزت في هذا مدرسة الإسكندرية، أمّا الرومان فكانوا مقلّدين لليونان؛ إذ بنوا نحوهم على أساس النحو اليوناني[53].

وبعدها العصور الوسطى؛ تناول فيه العصور الوسطى عند الغرب ولم تشهد أيّ خطوات أصيلة في دراسة اللّغة، ثم عصور وسطى في الشرق ابتدأت بالاهتمام بالقرآن الكريم، ثم كشف قواعد الكلام العربي للتعليم، ثمّ ظهر علماء لغويون أفذاذ قدّموا مؤلفات في مستويات اللغة المختلفة، مثل الخليل (معجم العين) وسيبويه (الكتاب)، ثم في وقت ما ظهرت الشروح والحواشي على المتون، كما عُني العلماء العرب بالمفردات

وجمعها، ووضع المعاجم، واهتمّوا بالفصاحة والبلاغة، كما اهتموا بتاريخ الدراسات اللغويّة، وتأليف كتب الطبقات[54].

وبعده عصر النهضة وما يليه؛ وكانت الريادة فيه لأوربا نظرا لعوامل كثيرة، كالتبشير، والاكتشافات الجغرافية، واقتصرت الدّراسة في بدايتها على التراث اليوناني والروماني، ثم انفتحوا على غيرهما، كما ظهر اهتمام باللّغات الدرافيدية (لغات جنوب الهند)، وتميّز البرتغاليون في الدّرس اللّغوي في هذه الحقبة، ووضع توماس ستيفنس نحوا للّغة الكونكانية، أمّا أهمّ ما قُدِّم فهو دراسة لبعض اللّغات السنسكريتيّة في شمال الهند[55].

ثمّ القرنان الثامن عشر والتاسع والعشر، فالأوّل تميّز بظهور النقد المقارن للنصوص القديمة، وأهمّ أحداثه اكتشاف وليام جونز اللغة السنسكريتيّة وعلاقتها باللاتينيّة واليونانيّة، وكان لهذا الاكتشاف دور كبير في النهضة اللّغوية الحديثة. أما القرن التاسع عشر فهو قرن الدراسات اللّغوية الحديثة، وتجلّى علم اللّغة فيه نحويا، تاريخيا، مقارنا، وتمّ اكتشاف الصّلات بين أهمّ اللّغات الأساسيّة في العالم، وتُمُكِّن من الوصول إلى الأصول العامة التي تحكم التغييرات التي تطرأ على الكلام الإنساني، وكان للّغويين الألمان دور فاعل في الدراسات التاريخية والمقارنة، مثل فرانز بوب، وجاكوب غريم، كما ظهر علماء اهتموا بالمسائل اللّغوية العامّة، مثل همبولت، وفنث، وهنري سويت[56].

أمّا في القرن العشرين فطفق العلماء ينظرون إلى اللّغة بعدّها بنية أو نظاما، وجاء دي سوسير الذي بيّن ضرورة الفصل بين اللّغة بعدّها نظاما مستقرا، وبين اللّغة من حيث التطوّر والتغيّر، فلكلّ دراسة منهجها الخاص، وفرّق بين اللّغة والكلام واللّسان، واقترح تأسيس علم العلامات، وقد تأثّر هو وتلامذته مثل ماييه وجريمان كثيرا بإميل دوركايم في علم الاجتماع. وطوّر اللّغويون أفكار دي سوسير حول الفونيم، فتأسست الفونولوجيا على يد تروبتسكوي، وجاكبسون، وظهرت مدرسة الغلوسيماتيك الدانماركية بزعامة هلمسلف الذي جاء بنظرية بارعة لكنها لقيت فشلا ذريعا، ثمّ انتقل الدرس اللّساني إلى أمريكا، وبرزت أسماء عملاقة مثل بلومفيلد زعيم السلوكية، وسابير زعيم التوزيعية[57].

وقد نحّى علم اللُّغة الحديث مسائل كثير من دراسته، هي: التصنيفات العامّة للّغات، ونشأة اللّغة، وتقويم اللغة، وإنشاء لغة عالمية، والتقليل من شأن الدراسات التاريخية،

وعدم ربط اللّغة بالفلسفة والمنطق. وفي المقابل نهل من الدراسات النفسية والاجتماعيّة، واعترف بعدم شمولية الوصف اللغوي، وأقرّ العلماء بحقيقة عدم القدرة على تطبيق كلّ معطيات النظرية اللغويّة، وعلى هذا فهناك علم لغة عام، وعلم لغة تطبيقي[58].

3- ميزات الكتاب، وأهميّة العلميّة، والفوائد التي يستجليها القارئ منه:

- اللّغة العلميّة السهلة السلسة التي تقرّب للقارئ ما بَعُد وتُوضّح له ما غَمُض.

- حسن الربط بين المواضيع المطروقة، وترتيب الكتاب بشكل منهجي، مع وجود بعض الخلط والتداخل، الذي لا يشينه، ولا يحطّ من قيمته.

- الاقتصار في الكتاب على المواضيع الهامّة والمتّفق حولها، والتي تعدّ مدخلا لفهم الدّرس اللّساني، والإحاطة بأهمّ أسسه وركائزه.

- الابتعاد عن التعقيد، وعدم تناول المواضيع التي تشكّل موضع خلاف، أو تحمل في طياتها صعوبة وتعقيدا؛ بالنظر إلى أنّ الدرس اللّساني متشعّب المواضيع ومتعدد المشارب.

- ترجمة بعض المصطلحات إلى اللّغة الفرنسيّة لمزيد من الفائدة؛ ونظرا لأهميّتها البالغة في البَحث (مثل أعضاء النطق ص ص 133-139).

- إحالة القارئ إلى مظان البحث أحيانا لمزيد من الفائدة (مثل الصفحة 101 في إطار الحديث عن علم المعنى).

- يحيل الباحث إلى جهوده في بعض مستويات اللّغة مثل المستوى الصوتي الذي قدّم فيه دراسة حاز بها درجة الدكتوراه من جامعة لندن (انظر مثلا ص 96).

- الإشارة إلى أنّ بعض الترجمات التي يقدّمها تقريبيّة فقط، (انظر الهامش رقم 5 الصفحة 91).

- كثيرا ما يحيل المؤلّف القارئ إلى كتابه الآخر "اللّغة والمجتمع"؛ نظرا لأهميّته البالغة في تجلية كثير من المسائل، (انظر ص 79).

- الاستفاضة في الشرح في الهامش أحيانا مع التعقيب وإبداء الرأي (انظر ص ص 72-73، ص ص 211-212)، وخصوصا (ص ص 229-230).

- كثير من الوسائل التي يذكرها المؤلّف وكانت أساس ومعتمد الدّراسات الصوتية مثل مجهر الحنجرة أصبحت قديمة زائلة، وظهرت وسائل تقنية حديثة متطوّرة جدّا في خضمّ عصر الرقمنة والذكاء الصناعي (ص 104).

- يحاول الباحث ما أمكنه الإحاطة بكليّات الدّراسة وجزئياتها رغبة في توصيل أكبر فائدة للقارئ.

- إحالة القارئ إلى جميع المراجع التي تكون معتمد باب من أبواب الدراسة، مثل باب علم الأصوات (ص 112).

- الإحالة إلى الاستزادة والتوضيح في ما هو آت من مباحث وفصول (انظر ص ص 129، 131).

- إعراض المؤلّف عن الإغداق في تناول المسائل التي لا تلزمه أو فيها خلاف بين الباحثين (انظر مثلا ص 134).

- قد يكون كلّ معتمد جزئيّة الدّراسة رأي عالم واحدٍ فقط يقول الباحث: «وقد اعتمدنا في التعريف بالصوت اللغوي على رأي الاستاذ دانيال جونز» (ص 143).

- الإشارة أحيانا إلى وجود خلافات بين الباحثين في جملة مسائل دون التفصيل فيها كثيرا، أو الاقتصارُ على تعريف واحد أو اثنين فقط، مثل الكلمة، والفونيم، والجملة...(هامش الصفحة 146 والصفحة 147).

- انتقاد بعض النتائج التي توصّل إليها قدماء الباحثين، مثل ردّه على اليونان في اعتبارهم أنّ الصوت لا يتأتّى نطقه إلّا بصائت مع صامت؛ لأنّ في لغات كثيرة كلمات تتكون من صوائت فقط، مثل (tz) في الصينية. (ص 150).

- تنويع الأمثلة التوضيحة في أكثر من لغة أحيانا، مثل التشيكوسلوفاكيّة، الكرواتية، الصينية، الفرنسية، الإسبانيّة.....

- توظيف بعض الأمثلة العاميّة مثل "بِيض، وبِيت" (ص 183).

- إرشاد الباحث إلى كتب أخرى تناولت المسائل التي عرض لها بشكل أوسع وأكثر فائدة، مثل إحالته إلى كتاب "تمّام حسان" "مناهج البحث في اللّغة"؛ حيث تحدّث فيه عن

الأصوات اللّغويّة مُورِدًا صورا ورسوما فوتوغرافيّة فيها فوائد كبيرة لطالب اللّسانيات (ص ص 186،187، ص ص 189، 190، ص 193).

- الاعتذار عن القصور في تقديم بعض المعارف لعلّة قاهرة، مثل عدم الترميز للكلمات التي مُثِّل بها للحروف الصوتية الخاصّة؛ لأنّها غير متوفّرة في المطابع العربيّة (ص 191).

- توضيح الفروق بين بعض الكلمات المتقاربة، مثل اللّحن والتنغيم (ص 192).

- التنويه إلى أنّ هناك اختلافا عند الباحثين في ما يخصّ ترجمات بعض الكلمات في البحث اللّساني، فتمام حسّان مثلا ترجم "Phonology" إلى "التشكيل الصوتي" بينما يصطفي الباحث مصطلح "فونولوجيا" و"فونولوجي" و"فونولوجية"؛ لأنّه لم يظهر في ذلك الوقت مصطلح عربيّ مرن، ويذكر في الصفحة 216 أنّ "محمّد مندور" اختار مصطلح "عامل الصيغة" ترجمةً للمورفيم، في حين اصطفى "الدواخلي" و"القصّاص" مصطلح "دال النسبة"، ويختار المؤلّف الإبقاء على مصطلح "مورفيم"، فهي حسبه مع عجمتها أشدّ مرونة وتصرّفا من المصطلحين السابقين.

- التعريف ببعض أعلام الدّرس اللّساني، مثل تروبسكوي (هامش ص 199).

- يعتمد الباحث أحيانا على جهود عالم واحد في مسألة من المسائل (هامش ص 209)، (ص 227).

- الاستفاضة في تقديم الأمثلة الكثيرة التي تزيد من وضوح الفكرة (مثل ص ص 223-224).

- بعض الأمثلة التي تُقدَّم للتوضيح قد تكون من لغةٍ واحدة -الإنجليزية غالبا- وأحيانا الفرنسيّة (ص 218).

- التمثيل ببعض اللّغات الميتة، مثل اللاتينية (ص 226).

- الإشادة بالجهود الحثيثة التي قدّمها العلماء الغرب في البحث اللّساني مثل "فندريس".

- يُلحظ من خلال تصفّح الكتاب اعتزاز المؤلّف بأستاذه الإنجليزي "فيرث" وحرصه على نقل أكبر قدر من آرائه وتوجّهاته اللّسانيّة ينظر مثلا (ص 238-140).

- يمثّل أحيانا بنماذج من اللّغة الألمانيّة (ص 290).

- ينتقد الباحث التعاطي غير المنهجي مع الأطروحات اللّسانيّة الذي وقع فيه كثير من الباحثين العرب، مثل سوء فهمهم لمصطلحات "La parole" "La langue" "La langage" التي فرّق بينها دي سوسير تفريقا دقيقا، لكن غاب معناها عن كثير من الباحثين فحملوها على غير وجهها، فعلى القارئ الانتباه والتدقيق (ص 307).

- ختم المؤلّف كتابه بمعجم لغوي "عربي، إنجليزي" حشد فيه كمّا معتبرا من المصطلحات اللسانيّة الهامّة التي لا غنى للباحث المبتدئ أو المتمرّس عنها.

- الإشادة بجهود بعض اللِّسانيين العرب في حقل الترجمة، مثل الباحث عبد الرحمان أيوب الذي ترجم كتابًا مهمّا ليسبرسن (ص 302).

- توضيح ما قد يكتنف بعض المصطلحات من غموض بشرحها في الهامش، مثل تفريقه بين الكتابة الهيروغليفية، والمقطعيّة، والألفبائيّة، أو الأبجديّة (ص 218).

- تجنّب الإطناب والحشو، والنأي عن ذكر ما يمكن أن يُتحاشى ذكره تحقيقا لهذه الغاية؛ لأنّ ذلك يخرج بالبحث عن هدفه فالمؤلف مثلا لم يتناول بالتعريف بعض العلوم العربيّة، كاللّغة، والنحو، والقراءات...وأحال القارئ على مظانٍ ثرّة يمكنه أن ينهل منها ما يريد، مثل: ضحى الإسلام، وظهر الإسلام لأحمد أمين –رحمه الله- (ص 325).

- يتوسّط المؤلّف في آرائه ويعتدل بلا إفراط ولا تفريط، فهو مثلا لا ينفي تأثّر النحو العربي بالمنطق الأرسطي، لكن هذا التأثير لم يكن كبيرا ولا شاملا. ويقرّ أنّ أكثر النحاة العرب كانوا معتدلين ولا ينحون إلى تغليب المنطق على الدراسات النحويّة والدراسات اللغوية بشكل عام (ص 326).

في ختام هذا البحث الذي سلّطنا فيه الدِّراسة والتَّحليل على كتاب "علم اللّغة - مقدّمة للقارئ العربي" يمكن القول: إنّ محمود السعران قد وُفِّق فيه إلى حدٍّ بعيد، وأصاب الهدف المنشود، وبلغ الغاية المقصودة من تأليفه؛ إذ كان هدفه تقديم كتابٍ لسانيٍّ علميٍّ للقارئ العربي المبتدئ حتى يلج إلى هذا الحقل العلميّ الذي كان فتيّا آنذاك، ويبصر به، ويبني فكرة وازنة حولهُ، فاحتبى له لغة علميّة سهلة وسلسة قريبة المأخذ، بعيدةً عن الغموض والتعقيد، وأجاد الرَّبط بين المواضيع، وأحسن الترتيب والتبويب -على علّات وهنات-، واقتصر البحث على المواضيع المهمّة دون غيرها، وابتعد عن التعقيد، كما

تميّز كتابه بترجمة المصطلحات الصعبة، والتنويع في الأمثلة والإكثار منها، وترجمة المصطلحات الهامّة، وإحالة القارئ إلى أمّات الكتب اللّسانيّة، وكان مسك الختام، أن زوّده بمعجم ثريٍّ يقدّم للقارئ أهمّ المصطلحات اللّسانيّة باللّغتين العربيّة والإنجليزيّة.

وعلى الرغم من أنّ البحث اللّساني قد تطوّر كثيرا؛ إلّا أنّ قيمة هذا الكتاب بقيت راسخة؛ إذ ما تزال فرصة الاستفادة منه متاحة للباحث والقارئ، مع مراعاة عدم صلاحية بعض الأطروحات اللّسانيّة التي عفا عنها الزمن؛ لأنّها لا تتسّق ومعطيات الدّرس اللّساني الحديث، بالنظر إلى أنّ التطوّر المتواتر، والاكتشافات المتعدّدة، قد صحّحت بعض المباحث، وتجاوزت بعضها، لكنّ أغلب مادة الكتاب من الكليّات المتّفق حولها، والمسلّمات التي لا خلاف عليها، فهي باقية بقاء اللّغة وبقاء الإنسان.

هوامش البحث:

[1]- ينظر: فاطمة الهادي بكّوش، نشأة الدّرس اللّساني العربي الحديث، دراسة في النشاط اللّساني العربيّ، إيتراك للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2004م، ص: 51.

[2]- علي المعيوف، دراسة العرب المحدثين لأصوات العربيّة، قراءة لأربعة أمثلة، مجلة جامعة ذمار للدراسات والبحوث، اليمن، ع 11، محرم 1431هـ-2010م، ص: 149.

[3]- محمود السعران، علم اللّغة، مقدّمة للقارئ العربيّ، دار النهضة العربيّة، بيروت، دط، دت، ص: 6.

[4]- ينظر: مصطفى غلفان، اللّسانيّات العربيّة، أسئلة المنهج، دار ورد الأردنيّة للنشر والتوزيع، عمّان، ط1، 2013م، ص: 92-95.

[5]- ينظر: عواد كوريكس، المباحث اللّغويّة في مؤلفات العراقيين المحدثين، مطبعة العاني، بغداد، ، ط1، 1965م، ص: 98.

[6]- ينظر: جلول دقي، أثر المرجعيات الثقافيّة في اللّسانيات العربيّة الحديثة، مجلّة العمدة في اللّسانيّات وتحليل الخطاب، المسيلة، الجزائر، مج 3، ع 2، 2019م، ص: 77.

[7]- ينظر: محمود السعران، علم اللّغة، مقدمة للقارئ العربي، ص: 49-51.

[8]- المرجع نفسه، ص: 51.

[9]- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[10]- ينظر: المرجع نفسه، ص: 52.

[11]- ينظر: المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[12]- المرجع نفسه، ص: 53.

[13]- ينظر: المرجع نفسه، ص: 55.

[14]- ينظر: المرجع نفسه، ص: 56.

[15]- ينظر: المرجع نفسه، ص: 58-62.

[16]- المرجع نفسه، ص: 63.

[17]- ينظر: المرجع نفسه، ص: 63-66.

[18]- ينظر: المرجع نفسه، ص: 66-68.

[19]- المرجع نفسه، ص: 73.

[20]- المرجع نفسه، ص: 74-75.

[21]- ينظر: المرجع نفسه، ص: 75-80.

[22]- ينظر: المرجع نفسه، ص: 79-80.

[23]- ينظر: المرجع نفسه، ص: 81-82.

[24]- ينظر: المرجع نفسه، ص: 87-88.

[25]- ينظر: المرجع نفسه، ص: 88-92.

[26]- ينظر: المرجع نفسه، ص: 92-96.

[27]- ينظر: المرجع نفسه، ص: 96-97.

[28]- ينظر: المرجع نفسه، ص: 100-101.

[29]- ينظر: المرجع نفسه، ص: 103-112.

[30]- ينظر: المرجع نفسه، ص: 113-122.

[31]- ينظر: المرجع نفسه، ص: 123-129.

[32]- ينظر: المرجع نفسه، ص: 131-140.

[33]- ينظر: المرجع نفسه، ص: 140-142.

[34]- ينظر: المرجع نفسه، ص: 143-147.

[35]-ينظر: المرجع نفسه، ص: 148-187.

[36]- ينظر: المرجع نفسه، ص: 188-193.

[37]- ينظر: المرجع نفسه، ص: 194-201.

[38]- ينظر: المرجع نفسه، ص: 205-208.

[39]- ينظر: المرجع نفسه، ص: 209-215.

[40]- ينظر: المرجع نفسه، ص: 216-226.

[41]- ينظر: المرجع نفسه، ص: 227-232.

[42]- ينظر: المرجع نفسه، ص: 233-236.

[43]- ينظر: المرجع نفسه، ص: 237-240.

[44]- ينظر: المرجع نفسه، ص: 241-245

[45]- ينظر: المرجع نفسه، ص: 245-258.

[46]- ينظر: المرجع نفسه، ص: 261-262.

[47]- ينظر: المرجع نفسه، ص: 263-272.

[48]- ينظر: المرجع نفسه، ص: 273-279.

[49]- ينظر: المرجع نفسه، ص: 280-286.

[50]- ينظر: المرجع نفسه، ص: 286-290.

[51]- ينظر: المرجع نفسه، ص: 291-300.

[52]- ينظر: المرجع نفسه، ص: 300-313.

[53]- ينظر: المرجع نفسه، ص: 317-323.

[54]- ينظر: المرجع نفسه، ص: 323-328.

[55]- ينظر: المرجع نفسه، ص: 328-330.

[56]- ينظر: المرجع نفسه، ص: 331-340.

[57]- ينظر: المرجع نفسه، ص: 341-347.

[58]- ينظر: المرجع نفسه، ص: 347-349.